﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠ ﴾

بعد أن قص الله علينا قصة الخلق وكيف بدأت بأدم ، وعداوة ابليس لآدم وسببها . قص علينا التجربة الأولى للمنهج فى إحدى الجنات ، وكيف أن آدم تعرض للتجربة فأغواه الشيطان وعصى . ثم نزل الى الأرض مسلحا بمنهج الله . ومحميا بالتوبة من أن يطغى . بدأت مهمة آدم على الأرض . .

ان الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعرض علينا موكب الرسالات وكيف استقبل بنو آدم منهج الله بالكفر والعصيان . فاختار جل جلاله قصة بنى اسرائيل لأنها أكثر القصص معجزات ، وأنبياء بنى اسرائيل من أكثر الانبياء الذين ارسلوا لأمة واحدة وليس معنى هذا أنهم مفضلون . ولكن لأنهم كانوا أكثر الأمم عصيانا وآثاما فكانوا أكثرها أنبياء . كانوا كلما خرجوا من معجزة انحرفوا . فتأتيهم معجزة أخرى . فينحرفون . وهكذا حكم الله عليهم لظلمهم أن يتفرقوا فى الأرض ثم يتجمعوا مرة أخرى فى مكان واحد . ليذوقوا العذاب والنكال جزاء لهم على معصيتهم وكفرهم . ولذلك أخذت قصة بنى اسرائيل ذلك الحجم الضخم فى كتاب الله . وفى تثبيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فموسى عليه السلام الذى ارسله الله الى بنى اسرائيل من اولى العزم من الرسل . ولذلك فانك تجد فيه تربية اولا . وتربية ثانيا . . ولابد أن نلتفت الى قول الحق سبحانه وتعالى : يا بنى اسرائيل » فالحق جل جلاله . حين يريد أن ينادى البشر جميعا يقول : « يابنى آدم » واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

لماذا يخاطبنا الله تعالى بقوله : يابنى آدم ؟ لأنه يريد أن يذكرنا بنعمة علينا منذ بداية الخلق . لأن هذه النعم تخص آدم وذريته . فالله تعالى خلق آدم بيديه . وأمر الملائكة أن تسجد له . وأعد له كونا مليئا بكل مايضمن استمرار حياته . ليس بالضروريات فقط . ولكن بالكماليات . ثم دربه الحق على ما سيتعرض له من اغواء الشيطان . وأفهمه أن الشيطان عدو له . ثم علمه كلمات التوبة . ليتوب عليه . وأمده بنعم لا تعد ولا تحصى .

فالله سبحانه وتعالى يريد أن يذكرنا بكل ذلك حتى نخجل من أن نرتكب معصية بعد كل هذا التكريم للانسان . فاذا تذكرنا نعم الله علينا .. فاننا نخجل أن نقابل هذه النعم بالمعصية .

وقد علمنا الله سبحانه وتعالى علما ميزنا الله تعالى فيه عن ملائكته . لذا كان يجب أن نظل شاكرين عابدين طوال حياتنا فى هذه الدنيا .

لكننا نلاحظ ان الحق سبحانه وتعالى بدأ هذه الآية الكريمة بقوله : « يا بنى اسرائيل » لماذا ؟ ومن هو اسرائيل ؟

اسرائيل مأخوذه من كلمتين : اسر و إيل . . (اسر) يعنى عبد مصطفى أو مختار . (وإيل) معناها الله فى العبرانية . فيكون معنى الكلمة صفوة الله . والاصطفاء هنا ليعقوب وليس لذريته . .

فاذا نظرنا الى اسرائيل الذى هو يعقوب كيف أخذ هذا الاسم . نجد أنه أخذ الاسم لأنه ابتلى من الله بلاء كبيرا . استحق به أن يكون صفيا لله . وعندما ينادى الله تعالى قوم موسى بقوله : يا بنى اسرائيل . فانه يريد أن يذكرهم بمنزلة اسرائيل عند الله . ما واجهه من بلاء . وما تحمله فى حياته . فاذكروا ما وصاكم به حين

حضرته الوفاة . . واقرأ قوله تبارك وتعالى :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ثم يأتى بعد ذلك قول يعقوب . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٣٢ سورة البقرة)

تلك هى الوصية التى وصى بها يعقوب بنيه . . فيها علم وفيها عظة . علم بأن الله اله واحد . لاشريك له . وأن الدين هو الاسلام . وعظة وتذكير بأن الله اختار لهم الدين . فليحرصوا عليه حتى الموت .

ولقد جاءت هذه الوصية حين حضر يعقوب الموت . وساعة الموت يكون الانسان صادقا مع نفسه . وصادقا مع ربه . وصادقا مع ذريته . فكأنه سبحانه وتعالى حينما يقول : « يابنى اسرائيل » يريد أن يذكرهم باسرائيل وهو يعقوب وكيف تحمل وظل صابرا . ووصيته لهم ساعة الموت .

إن الله سبحانه وتعالى يذكر الأبناء بفضله على الآباء علهم يتعظون أو يخجلون من المعصية تماما كما يكون هناك عبد صالح اسرف أبناؤه على أنفسهم .

فيقال لهم :

ألا تخجلون ؟ أنتم أبناء فلان الرجل الصالح . لا يصح أن ترتكبوا ما يغضب الله . . . « يابنى اسرائيل »

اسرائيل هو يعقوب ابن اسحاق . واسحاق ابن ابراهيم . وابراهيم انجب اسحاق واسماعيل . . ورسولنا صلى الله عليه وسلم من ذرية اسماعيل . والله سبحانه وتعالى يقول : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم » ولكن الله سبحانه وتعالى حين يخاطب المسلمين لا يقول اذكروا نعمة الله . وانما يقول : « اذكروا الله » لأن بنى اسرائيل ماديون ودنيويون .

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهم : ما دمتم ماديين ودنيويين . فاذكروا نعمة الله المادية عليكم .

ولكننا نحن المسلمين أمة غير مادية .

وهناك فرق بين أن يكون الانسان مع النعمة . وأن يكون مع المنعم . الماديون يحبون النعمة . وغير الماديين يحبون المنعم . ويعيشون فى معيته . ولذلك . فخطاب المسلمين : « اذكروا الله » لأننا نحن مع المنعم . بينما خطابه سبحانه لبنى اسرائيل : « اذكروا نعمة الله »

والحديث القدسى يقول : « أنا أهل أن اتقى فلا يجعل معى إله ، فمن اتقى ان يجعل معى الها كان أهلا أن أغفر له » [1]

فالله سبحانه وتعالى واجب العبادة . ولو لم يخلق الجنة والنار . . ولذلك فان المؤمنين هم أهل الابتلاء من الله . لماذا ؟ لأن الابتلاء منه نعمة . والله سبحانه وتعالى يباهى بعباده ملائكته . ويقول : انهم يعبدوننى لذاتى . فتقول الملائكة : بل يعبدونك لنعمتك عليهم . فيقول سبحانه لهم : سأقبضها عنهم ولا يزالون يحبوننى . . ومن عبادى من أحب دعاءهم . فأنا أبتليهم حتى يقولوا يارب . لأن أصواتهم يحبها الله سبحانه وتعالى . ولذلك اذا ابتلى عبدا فى صحته مثلا . وسلب منه نعمة العافية . ترى الجاهل هو الذي ينظر الى هذا نظرة عدم الرضا . وأما المتعمق فينظر الى قول الله فى الحديث القدسى : ان الله عز وجل يقول يوم القيامة : « يا بن آدم مرضت فلم تعدنى قال : يارب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده . أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى

(١) رواه الترمذى وابن ماجه من حديث الحباب ورواه النسائى .

عنده » (٢) فلو فقد المؤمن نعمة العافية . . . فلا ييأس فان الله تعالى يريده ان يعيش مع المنعم . . وأنه طوال فترة مرضه فى معية الله تعالى . ولذلك حين يقول الحق تبارك وتعالى : « يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم » معناها . ان لم تكونوا مؤمنين لذاتى . فاستحيوا أن ترتكبوا المعصية بنعمتى التى أنعمت عليكم .ولقد جاءت النعمة هنا لأن بنى اسرائيل يعبدون الله من أجل نعمه .

«اذكروا نعمتى » الذكر هو الحفظ من النسيان ، لأن روتين الحياة يجعلنا ننسى المسبب للنعم . فالشمس تطلع كل يوم . كم منا يتذكر أنها لا تطلع الا بإذن الله فيشكره . والمطر ينزل كل فترة . من منا يتذكر أن المطر ينزله الله . فيشكره.فالذكر يكون باللسان وبالقلب . والله سبحانه وتعالى غيب مستور عنا . وعظمته أنه مستور . ولكن نعم الله سبحانه تدلنا عليه . . فبالذكر يكون فى بالنا دائما . وبنعمه يكون ذكره وشكره دائما .

والحق سبحانه وتعالى طلب من بنى اسرائيل أن يذكروا النعمة التى انعمها عليهم فقط . وكان يجب عليهم أن يطيعوا الله فيذكروا المنعم . لأن ذكر الله سبحانه وتعالى يجعلك فى ركن ركين . لا يصل اليك مكروه ولا شر .

إن ذكر الله المنعم يعطينا حركة الحياة فى كل شيء . فذكر الله يوجد فى القلوب الخشوع . ويقلل من المعاصى وينتفع الناس كل الناس به ، ويجعل حركة الحياة مستقيمة . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى . « اذكروا نعمتى » معناها اذكرونى حتى بالنعمة التى أنعمت عليكم . وقوله تعالى : « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » العهد هو الميثاق. واقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

اذن فالعهد أمر موثق بين العبد وربه . ما هو العهد الذى يريد الله من بنى

---

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة .

اسرائيل أن يوفوا به ليفى الله بعهده لهم ؟

نقول : اما أن يكون عهد الفطرة . وعهد الفطرة كما قلنا أن نؤمن بالله ونشكره على نعمه . وكما قلنا اذا هبط الانسان فى مكان ليس فيه أحد . ثم نام وقام فوجد مائدة حافلة بالنعم أمامه . ألا يسأل نفسه : من صنع هذا ؟ لو أنه فكر قليلا لعرف أنه لابد أن يكون لها من صانع . خصوصا أن الخلق هنا فوق قدرات البشر . فاذا أرسل الله سبحانه وتعالى رسولا يقول إن الله هو الذى خلق وأوجد . ولم يوجد مدع ولا معارض نظرا لأن ايجاد هذه النعم فوق قدرة البشر . تكون القضية محسومة لله سبحانه وتعالى .

اذن فذكر الله وشكره واجب بالفطرة السلمية ، لا يحتاج الى تعقيدات وفلسفات . والوفاء بعهد الله أن نعبده ونشكره هو فطرة الايمان لما اعطاه لنا من نعم . على أن الحق سبحانه وتعالى نجده يقول :

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة البقرة)

وفى آية اخرى :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة البقرة)

وفى آية ثالثة :

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة محمد)

ما هى هذه القضية التى يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا اليها فى هذه الآيات الكريمة ؟الله سبحانه وتعالى يريد أن نعرف أنه قد وضع فى يدنا مفتاح الجنة . ففى يد كل واحد منا مفتاح الطريق الذى يقوده الى الجنة او الى النار . ولذلك اذا وفيت بالعهد أوفى الله . واذا ذكرت الله ذكرك . واذا نصرت الله نصرك . .

والحديث القدسى يقول : «وإن تقرب الىَّ شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الىَّ ذراعا تقربت اليه باعا وان أتانى يمشى أتيته هرولة »[1]

هكذا يريد الحق سبحانه وتعالى أن ينبهنا أن المفتاح فى يدنا نحن . فإذا بدأنا بالطاعة . فإن عطاء الله بلا حدود . واذا تقربنا الى الله تقرب الينا . واذا بعدنا عنه نادانا : هذا هو ايمان الفطرة

هل هذا هو العهد المقصود من الله سبحانه فى قوله : « أوفوا بعهدى أوف بعهدكم » أو هو العهد الذى اخذه الله على الانبياء ليبلغوا أقوامهم بأنهم اذا جاء رسول مصدق لما معهم فلابد أن يؤمنوا به وينصروه ؟ فالحق سبحانه وتعالى أخذ على الانبياء جميعا العهد لرسول الاسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . أو هو العهد الذى أخذه الله بواسطة موسى عليه السلام على علماء بنى اسرائيل الذين تلقوا التوراة ولقنوها وكتبوها وحفظوها . عهد بألا يكتموا منها شيئا . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والهدف من هذا العهد . ألا يكتموا ما ورد عن الاسلام فى التوراة . وألا يخفوا صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم التى جاءت بها . . والله سبحانه وتعالى قد أعطى صفات رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فى التوراة وفى الانجيل . . واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

---

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ورواه مسلم والترمذى .

ولقد جاء القرآن الكريم . مصدقا لما نزل من التوراة . وعرف بنو اسرائيل أنفسهم صدق ما نزل فى القرآن . ولكنهم كفروا لأن رسول الله لم يكن من قومهم . . وقد كان أهل الكتاب من توراة وانجيل يعرفون أن رسالة رسول الله هى الرسالة الخاتمة . وانه لابد أن يؤمن به قوم كل نبى . هل هذا هو العهد الذى يوجب على كافة الأمم الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ونصرته ان أدركوه . وان لم يدركوه فالمسئولية على أبنائهم واحفادهم أن ينصروه ويؤمنوا به متى أدركوه . ان كانت هى عهد ايمان الفطرة ، او كانت هى عهد الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم فكلاهما وارد .

وقوله تعالى : « أوف بعهدكم » أى بما وعدتكم من جنة النعيم فى الآخرة . فالله سبحانه وتعالى بعد نزول الاسلام اختص برحمته الذين آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام . وكل من لم يؤمن بهذا الدين لا عهد له عند الله .

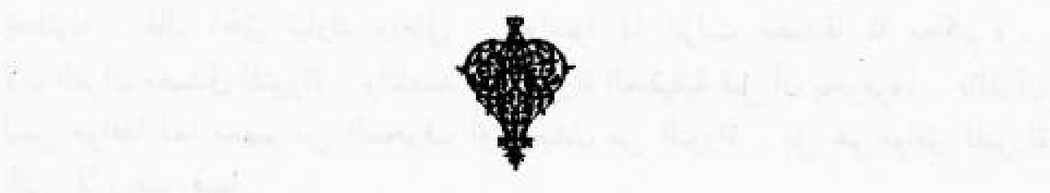
واقرأ قوله تبارك وتعالى عندما أخذت الرجفة موسى وقومه وطلب موسى من الله سبحانه وتعالى الرحمة . قال تعالى :

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

فالحق سبحانه وتعالى يذكر بنى اسرائيل فى هذه الآية الكريمة . بالعهد الذى أخذه عليهم . وينذرهم أن رحمته هى للمؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم متى جاءت رسالته . .

وقوله تعالى : « وإياى فارهبون » أى أنه لا توجد قوة ولا قدرة فى الكون الا قوة الله سبحانه وتعالى . ولذلك فاتقوا يوما ستلاقون فيه الله ويحاسبكم . وهو سبحانه وتعالى قهار جبار . ولا نجاة من عذابه لمن لم يؤمن .



﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾

بعد أن ذَكّرَ الله سبحانه وتعالى بنى اسرائيل بالعهود التى قطعوها على انفسهم سواء بعدم التبديل والتغيير فى التوراة . لإخفاء أشياء واضافة أشياء . وذكرهم بعهدهم بالنسبة للايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ذكر الله سبحانه وتعالى أوصافه فى التوراة . حتى أن الحَبْرُ اليهودى ابن سلام كان يقول لقومه فى المدينة : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتى لابنى ومعرفتى لمحمد أشد . أى أنه كان يُذَكِّرُ قومه . أن أوصاف الرسول صلى الله عليه وسلم الموجودة فى التوراة . لا تجعلهم يخطئونه . قال الحق تبارك وتعالى : « وامنوا بما انزلت مصدقا لما معكم » . لأن القرآن مصدق للتوراة . والقصد هنا التوراة الحقيقية قبل أن يحرفوها . فالقرآن ليس موافقا لما معهم من المحرف أو المبدل من التوراة . بل هو موافق للتوراة التى لا زيف فيها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : « ولا تكونوا أول كافر به » . . ولقد قلنا ان اليهود لم يكونوا أول كافر بمحمد صلى الله عليه وسلم . وانما كانت قريش قد كفرت به فى مكة . المقصود فى هذه الآية الكريمة أول كافر به من أهل الكتاب . لماذا ؟ لأن قريشا لا صلة لها بمنهج السماء . ولا هى تعرف شيئا عن الكتب السابقة . ولكن أحبار اليهود كانوا يعرفون صدق الرسالة . وكانوا يستفتحون برسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل المدينة ويقولون : « جاء زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم » . ولما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلا من أن يسارعوا بالايمان به . كانوا أول كافر به .

والله سبحانه وتعالى لم يفاجىء اهل الكتاب بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم . وانما نبههم الى ذلك فى التوراة والانجيل . ولذلك كان يجب أن يكونوا أول المؤمنين وليس أول الكافرين . لأن الذى جاء يعرفونه . .

وقوله تعالى : « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » : الحق سبحانه وتعالى حينها يتحدث عن الصفقة الايمانية . يستخدم كلمة الشراء وكلمة البيع وكلمة التجارة.اقرأ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾

(من الاية ١١١ سورة التوبة)

وفى اية أخرى يقول :

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾

(من الأيتان ١٠ ، ١١ سورة الصف)

ان الحق سبحان وتعالى .. استعمل كلمة الصفقة والشراء والبيع بعد ذلك فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾

(من الآية ٩ سورة الجمعة)

ونعلم أن التجارة هى وساطة بين المنتج والمستهلك . . المنتج يريد أن يبيع انتاجه . والمستهلك محتاج الى هذا الانتاج . والربح عملية تطول فترة .. وتقصر فترة مع عملية تحرك السلعة والاقبال عليها ان كان سريعا أو بطيئا . وعملية الاتجار استخدمها الله سبحانه وتعالى ليبين لنا أنها أقصر طريق الى النفع . فالتجارة تقوم على يد الانسان . يشترى السلعة ويبيعها . ولكنها مع الله سيأخذ منك بعضا من حرية نفسك . ليعطيك أخلد وأوسع منها .

وكما قلنا : لو قارنا بين الدنيا بعمرها المحدود ـ عمر كل واحد منا ـ كم سنة ؟ خمسين . . ستين . . سبعين !! نجد أن الدنيا مهما طالت .. ستنتهى . والانسان العاقل هو الذى يضحى بالفترة الموقوته والمنتهية ليكون له حظ فى الفترة الخالدة .

وبذلك تكون هذه الصفقة رابحة .

ان النعيم فى الدنيا على قدر قدرات البشر . والنعيم فى الآخرة على قدر قدرات الله سبحانه وتعالى . يأتى الانسان ليقول : لماذا أضيق علىّ نفسى فى الدنيا ؟ لماذا لا أتمتع ؟ نقول له : لا . . إن الذى ستناله من العذاب والعقاب فى الآخرة لا يساوى ما أخذته من الدنيا . . اذن الصفقة خاسرة . أنت اشتريت زائلا . ودفعته ثمنا لنعيم خالد . .

والله سبحانه وتعالى يقول لليهود : « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » أى لا تدفعوا الأيات الايمانية التى أعطيت لكم لتأخذوا مقابلها ثمنا قليلا . . وعندما يأخذ الانسان أقل مما يعطى .. فذلك قلب للصفقة . والقلب تأتى منه الخسارة دائما . .

وكأن الأية تقول : تدفعون آيات الله التى تكون منهجه المتكامل لتأخذوا عرضا من أعراض الدنيا . قيمته قليلة ووقته قصير . هذا قلب للصفقة .

ولذلك جاء الأداء القرآنى مقابلا لهذا القلب . ففى الصفقات . . الاثمان دائما تدفع والسلعة تؤخذ . ولكن فى هذه الحالة التى تتحدث عنها الآية فى قوله تعالى « ولاتشتروا باياتى ثمنا قليلا » قد جعلت الثمن الذى يجب أن يكون مدفوعا جعلته مشترى وهذا هو الحمق والخطأ .

الله يقول « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » أى لا تقلبوا الصفقة . . الشىء الذى كان يجب أن تضحوا به لا تجعلوه ثمنا . لأنك فى هذه الحالة تكون قد جعلت الثمن سلعة . مادمت ستشترى الآيات بالثمن . . فقد جعلت آيات الله ثمنا لتحصل على مكاسب دنيوية. وليتك جعلتها ثمنا غاليا . بل جعلتها ثمنا رخيصا .

لقد تنكرت لعهدك مع الله ليبقى لك مالك أو مركزك !! أما اذا ضحى الانسان بشىء من متع الدنيا .. ليأخذ متع الآخرة الباقية .. فتكون هذه هى الصفقة الرابحة . ذلك لأن الانسان فى الدنيا ينعم على قدر تصوره للنعيم . ولكنه فى الآخرة ينعم على قدر تصور الله سبحانه وتعالى فى النعيم .

بعض الذين لا يريدون أن يحملوا أنفسهم على منهج الله يستعجلون مكاسب الصفقة . استعجالا أحمق . انهم يريدون المتعة حراما أو حلالا .. نقول لكل واحد منهم : ان كنت مؤمنا بالآخرة : أو غير مؤمن فالصفقة خاسرة .. لأنك فى كلتا الحالتين ستعذب فى النار .. فكأنك اشتريت بإيمانك ودينك متعة زائلة . وجعلت الكفر ومعصية الله هما الثمن فقلبت الآية ، وجعلت الشيء الذى كان يجب أن يشترى بمنهج الله وهو نعيم الآخرة يباع .. ويباع بماذا ؟ بنعيم زائل ! وعندما يأخذ الانسان أقل مما يعطى .. يكون هذا قلبا للصفقة .

فكأن الآية تقول : انكم تدفعون آيات الله وما تعطيكم من خَيْرَىْ الدنيا والآخرة لتأخذوا عرضا زائلا من أعراض الدنيا وثمنه قليل . والثمن يكون دائما من الأعيان كالذهب والفضة وغيرهما .. وهى ليست سلعة . فهب أن معك كنز قارون ذهبا . وأنت فى مكان منعزل وجائع . ألا تعطى هذا الكنز لمن سيعطيك رغيفا .. حتى لا تموت من الجوع ؟ ولذلك يجب ألا يكون المال غاية أو سلعة . فإن جعلته غاية يكون معك المال الكثير .. ولا تشترى به شيئا لأن المال غايتك . فيفسد المجتمع .

إن المال عبد مخلص . ولكنه سيد رديء . هو عبدك حين تنفقه . ولكن حين تخزنه وتتكالب عليه يشقيك ويمرضك . لأنك أصبحت له خادما .

والآية الكريمة .. تعطينا فكرة عن اليهود لأن محور حياتهم وحركتهم هو المال والذهب . فالله سبحانه وتعالى حرم الربا لأن المال فى الربا يصبح سلعة . فالمائة تأخذ بمائة وخمسين مثلا .. وهذا يفسد المجتمع ، لانه من المفروض أن يزيد المال بالعمل . فإذا أصبحت زيادة المال بدون عمل . فسدت حركة الحياة . وزاد الفقير فقرا . وزاد الغنى غنى . وهذا ما نراه فى العالم اليوم .

فالدول الفقيرة تزداد فقرا لأنها تقترض المال وتتراكم عليها فوائده حتى تكون الفائدة أكثر من الدين نفسه . وكلما مر الوقت . زادت الفوائد . فيتضاعف الدين . ويستحيل التسديد . والدول الغنية تزداد غنى ، لأنها تدفع القرض وتسترده بأضعاف قيمته .

واذا قال الله سبحانه وتعالى : « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا » يجب ألا نفهم أنه

يمكن شراء آيات الله بثمن أعلى . . لا . لأنه مهما ارتفع الثمن وعلا سيكون قليلا . وقليلا جدا . لأنه يقابل آيات الله . وآيات الله لا تقدر بثمن . فالصفقة خاسرة مهما كانت قيمتها .

وقول الحق تبارك وتعالى : « واياى فاتقون » وفى الآية السابقة قال : « واياى فارهبون » وهى وعيد . ولكن « اياى فاتقون » واقع . فقوله تعالى : « وإياى فارهبون » هى وعيد وتحذير لما سيأتى فى الآخرة . ولكن « وإياى فاتقون » يعنى اتقوا صفات الجلال من الله تعالى . وصفات الجلال هى التى تتعلق ببطش الله وعذابه . ومن هذه الصفات الجبار والقهار والمتكبر والقادر والمنتقم والمذل . وغيرها من صفات الجلال .

الله سبحانه وتعالى يقول : « اتقوا الله » ويقول « اتقوا النار » كيف ؟ نقول إن الله سبحانه وتعالى يريدنا أن نجعل بيننا وبين النار ـ وهى أحد جنود العذاب لله سبحانه وتعالى ـ وقاية . ويريدنا أن نجعل بيننا وبين عذاب النار وقاية . ويريدنا أيضا . أن نجعل بيننا وبين صفات الجلال فى الله وقاية . فقوله تعالى : « وإياى فاتقون » اى اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال فى الله وقاية . حتى لا يصيبكم عذاب عظيم . وكيف نجعل بيننا وبين صفات الجلال فى الله وقاية ؟ أن تكون أعمالنا فى الدنيا وفقا لمنهج الله سبحانه وتعالى . اذن فالتقوى مطلوبة فى الدنيا . .

